



بشينة خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

غاندي وأحفاد طلاع الثنايا!

■ صادف الثاني من أكتوبر ذكرى ميلاد غاندي (2 أكتوبر - 1869 30 يناير 1948)، والملقب بالمهاتما أي (صاحب النفس العظيمة) أو القديس بالإنجليزية.. وقد اعتبرت ذكرى ميلاده عن حق مناسبة لاستحضار فلسفته الفذة في عالم السياسة، حيث اتخذها لمبدأ المقاومة السلمية أو فلسفة اللاعنّف (الساتيارها) وهي "مجموعة من المبادئ تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية في أن واحد، ملخصها الشجاعة والحق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعي الكامل بالخطر المحدق، وتكوين قوة قادرة على مجابهة الخطر باللاعنف ثم بالعنّف إذا تعذرت السبل في إيجاد مخرج آخر".

لقد انبثقت صيحات غاندي في فترة زمنية مختلفة بكل المقاييس عن الفترة التي نعيشها، فإلى أي مدى نستطيع أن نراهن على مبدأ سياسة اللاعنّف في وقت احتد فيه الصراع واتخذ أشكالاً وصوراً متعددة من العنّف والعنف المضاد؟ وهل نستطيع أن نسلك مسلك "اللاعنف" في التصدي لمظاهر العنّف السائدة حالياً، وأين منا إذن قول المصطفى صلى الله عليه وسلم "العين بالعين، والسن بالسن وبالبدن بالبدن"؟

قد يفسر البعض سياسة اللاعنّف أنها عجز أو ضرب من ضروب عدم القدرة على المجابهة، وقد أوضح غاندي في سياق منظومته الفكرية أن "الامتناع عن المعاقبة لا تعتبر غضراباً، إلا عندما تكون القدرة على المعاقبة قائمة فعلاً"، وهي لا تعني كذلك عدم اللجوء إلى العنّف على الإطلاق، حيث يؤكد غاندي: "إني قد لا أجا إلى العنّف ألف مره، إذا كان البديل إخصاء عرق بشري بأكمله".

إذن هو يرى أن سياسة اللاعنّف، قادرة على أن تحرك وجدان ومشاعر الرأي العام، بما

يجعله يستنفر دفاعاً عن المظلوم، حينما يتماهى الظالم في غيبه، وفي ذلك اتخذ عدة أساليب وطرائق منها الصيام، المقاطعة، الاعتصام، العصيان المدني والقبول بالسجن، وجميع ذلك شريطة أن تتوافر لدى الخصم مساحة تمكنه من فتح حوار عقلائي وجداد مع الطرف الآخر.

ولطالما ردد غاندي موضعاً بعض مبادئ عقيدته: "المجاهد في معركة عدم العنّف يجب أن يكون أقرب ما يكون من الإنسان الكامل، وكلما طهرنا أنفسنا من العنّف، كلما زدنا فضلاً وعندها لن يتردد أحد في الإيمان بقوة الحب، وإذا عمت الدنيا هذا القوة، لأحدثت ثورة في مثلنا العليا ولمحت الاستبداد ولقضت على الروح المريية النامية أبداً والتي تئن تحت نيرها الأمم الغربية إلى حد الموت".

لم يكن غاندي شخصاً فقيراً أو معدم الحال، كما توشي هيئته بذلك، بل كان ينحدر من أسرة ميسورة الحال، حيث شغل جده ومن بعده والده منصب رئيس وزراء إمارة "بور بندر"، وقد اشتهرت أسرته بامتنان التجارة. ونستطيع القول إن مجموعة أفكار ورؤى عملت على بلورة وصياغة فكر المهاتما، حيث ولعه الشديد

بكتابات المؤلف الأمريكي هنري ديفيد ثورو صاحب فكرة "العصيان المدني"، كما عرف عنه تأثره بفلسفة البراهماتيه وهي عبارة عن (ممارسة يومية ودائمة تهدف إلى جعل الإنسان يتحكم في كل أهوائه وحواسه عن طريق الزهد والتنسك والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع، يستطيع من خلالها المرء أن يحرر ذاته).

إذن لم يكن غاندي مجرد رجل سياسي محض، بل كانت عقلية المفكر الفيلسوف كثيراً ما تطفئ على جوانب أخرى من شخصيته، وهذا ما جعله قادراً على ممارسة طقوسه الفكرية بصمود دون هواده، ساعده في ذلك وقوفه على أرضية لمجتمع خليط، لا يعرف له قرار، قابل للتشكل ومتهين لاستقبال الأفكار والأطروحات التي تعمد إلى انتشاله مما يعانیه من فقر مدقع، كان لسوء توزيع الثروات والتميز العنصري عنصراً مهماً في تفشيه - أي الفقر -.

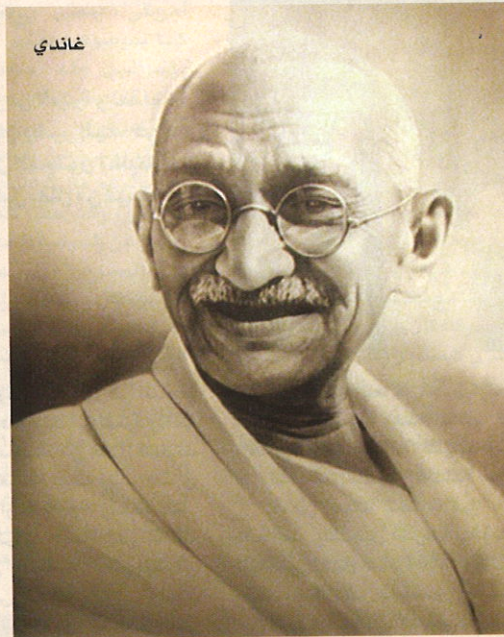
من هنا كانت كلمة السر لدى غاندي ومفتاحه للولوج إلى تحقيق مبادئه السامية في الحكم، إذ هو اتخذ من العمّال والمستضعفين على الأرض سبيلاً

وستنداً يتكأ عليه في خطاه. ولعل من أبرز إنجازاته التي تذكر في هذا السياق، أنه حينما كان في جنوب إفريقيا 1893-1915 والتي عاش فيها قرابة العشرين عاماً، كان قد نذر نفسه للدفاع عن العمّال الهنود هناك أمام الشركات البريطانية، مما أسهم في مد جسور الثقة بينه وبين شريحة كبيرة من شرائح المجتمع الهندي، وكذا رفع نصاب مؤيديه. فلما عاد إلى الهند عام 1915، استطاع أن يصبح الزعيم الأكثر شعبية بلا منازع، وذلك بعد سنوات عديدة من النضال والعمل الوطني خارج الهند.

اليوم، ونتيجة لعهد الانفتاح وقرب

المسافات وما صاحبهما من تقارب فكري وحوار على مستوى الحضارات، ما أحوجتنا أن نستذكر سويًا ما قدمه المهاتما طيلة فترة حكمه من مبادئ قد تنفق أو نختلف حول مدى مواكبتها وصلاحياتها في عهدنا الحاضر، لاسيما وأن مراكز القوى قد تغيرت وأجندات الحكم هي الأخرى قد تغيرت، بظهور قوى فردية مهيمنه على الساحة السياسية كالولايات المتحدة الأمريكية، وانتشار أوراق ومسميات لم تكن معروفة عن ذي قبل كورقة الطائفية وما صاحبها من تشردم وتفكك على مستوى الصف العربي، لتست أدري لو كان المهاتما على قيد الحياة، كيف استطاع أن يواجه هكذا عنف نفسي مؤجج؟ ورغم يقيننا نحن العرب أن ثمة قوى أجنبية هدامة تسعى للنيل من وحدة صفوفنا، إلا أننا عبتنا نحاول الاستيقاظ من سباتنا اللامعروف مداه..

اللاعنف اليوم يا سيدي المهاتما غاندي، قد تغير مضمونه وفحواه، ولم يعد يشكل وسيلة مثلى نجابه به العدو الخارجي، وثمة عنف خطير يكاد يمزق أوصالنا نحن أحفاد طلاع الثنايا! ■



غاندي